"القــراءة النفسـية للشــــعر الجـــــاهــلي "

- إشكالية التطبيق والوعي بالأصول-

طالبة دكتوراه: صارة مزياني

كلية الآداب واللغات

جامعة العربي بن مهيدي -أم البواقي-

تاريخ الارسال2019/11/21	تاريخ القبول2019/11/21	تاريخ النشر2019/12/28

الملخص:

عرفت الساحة النقدية في العصر الحديث تهافتا كبيرا على تبني المناهج الغربية ، ومحاولة تطبيقها على النصوص التراثية دون معرفة دقيقة بأصولها وتربتها التي نشأت فيها ودون مراعاة لخصوصية النصوص فاتسمت بعض هذه القراءات بالنقص.

ومن أهم تطبيقاتهم ما اعتمد منها على المنهج النفسي في قراءة الشعر الجاهلي الذي لقي إقبالا كبيرا من طرف النقاد ، لأنه خير أداة للتعبير عن جوهره والتعبير عن الذات المبدعة من خلال النص الإبداعي الذي يعكس أعماق الشاعر ، وهو ما سنقف عليه في هذه الورقة البحثية لنبين كيف استطاع النقد العربي الحديث أن يستثمر المنهج النفسي في مقاربة النص الشعري القديم ؟ وهل كان تطبيقه بناء على وعي بأصوله و خلفياته الفكرية والفلسفية؟

و ذلك من خلال رصد جوانب من المقاربة النفسية لنماذج من التراث الشعري الجاهلي .

الكلمات المفتاحية:

النقد - الفلسفة - النص الشعري.

Résumé :

Pendant la nouvelle ère, la critique a connu un énorme envi d'adopter les formes occidentales et essayer de les pratiquer sur les textes patrimoniaux sans une reconnaissance détaillée de leures origines et leures genèse, sans prendre en considération la confidentialité des textes, alors quelques lectures ont été reconnues de l'imperfection parmi les plus importants pratiques ce que a été base sur l'approche psychanalytique en lisant le poème primitif, qui a trouvé un reçu de la part des critiques parce qu' il est le meilleur moyen de de s'exprimer à travers le texte innovatrice qui reflète le font le font du poète, c'est celui-là ce qu' on va évoquer dans cette recherche pour monter comment le moderne critique arabe a pu investir la psychanalyse dans l'approche du texte poétique classique ? et est-ce que sa pratique a été base sur une conscience de leurs origines et leures racines intellectuelles et philosophiques ? est à travers l'observation des aspects psychanalytiques a des exemples de patrimoine poétique primitif.

Les Mots Clés:

La critique - La Philosophie - Texte Poétique.

مقدمة:

يعد الشعر الجاهلي أصل النصوص الشعرية الذي أسس للخطاب الشعري العربي، حيث احتل مكانة كبيرة في حقل الدراسات النقدية ،كونه نص متميز و منفرد، لغته مشبعة بالرؤى الانسانية وتنوع الموضوعات التي تأتي في سياق تجليات التعبير الفكري و الجمالي.

وهو ما جعله ميدانا خصبا للعديد من القراءات النقدية الحديثة وخاصة القراءات السياقية، باعتبارها المقاربة العربية الحديثة الأولى التي استمدت رؤاها وأدواتها الاجرائية من النقد الغربي بمختلف الاتجاهات ، ومنه الاتجاه النفسي الذي لقي اقبالا كبيرا من طرف النقاد العرب محاولين استثمار الأطروحات والمنطلقات المعرفية للمنهج أثناء ممارساتهم النقدية، لدراسة الشعر الجاهلي والكشف عن كنهه ومعدنه الأصيل .

1/الأسس النظرية للقراءة النفسية في مصادرها الغربية :

يعرف المنهج النفسي في النقد العربي الحديث بأنه المنهج الذي يستمد آلياته النقدية من نظرية التحليل النفسي التي أسسها "سيغموند فرويد " Freud .s 1836- 1939" في مطلع القرن العشرين ،فسر على ضوئها السلوك الإنساني برده إلى منطقة اللاوعي (اللاشعور).[1]

وينظر المشتغلون بالتحليل النفسي بوصفه علما يدرس الإنسان في أخص أحواله، وفي مقدمة هذه الأحوال المرض ، حيث تدفع الانسان معناته وآلامه إلى البوح بما يضمر، وأيضا رغباته المكبوتة المخزنة في منطقة اللاشعور "وهكذا تطور التحليل النفسي من نظرية وطريقة حرفية في علاج نوع محدد من المرض النفسي وهو العصاب إلى نظرية عامة في أحوال النفس وخفاياها، وفي طبيعة الوجود الإنساني بأسره"[2].

إن منطقة اللاشعور هي خزان لمجموعة الرغبات المكبوتة التي يبحث الانسان دوما عن إشباعها فاعتبر "فرويد" الأحلام والأعمال الأدبية وسيلة لإشباع هذه الرغبات ، من هنا كان الفن عنده هو" تصعيد وتعويض لما لم يستطع الفنان تحقيقه في واقعه الاجتماعي واستجابة تلقائية لتلك المثيرات النائمة في الأعماق النفسية السحيقة " [3] ، فأصبح المنهج النفسي وسيلة للكشف عن قدرة النص الأدبي في التعبير عن مضمون اللاوعي لدى الأديب والمستويات النفسية العميقة لديه من خلال دراسة الأدب على مستويين مستوى النص، ومستوى المبدع (الأديب)، وقد كان لمدرسة التحليل النفسي التي أسسها "سيغموند فرويد" عام 1900م، الريادة في تحليل الأعمال الإبداعية وصولا لنفسية المبدع وكشف أغوارها، حين قسم الجهاز النفسي الباطني إلى ثلاث مستويات: المستوى الشعوري، وما قبل الشعور، واللاشعور[4]، هذا الأخير الذي يعد الفرضية الأساس التي تقوم عليها نظرية التحليل النفسي، وجعلها مادة خام ومرجعا أساسا لسبر الأغوار النفسية ،كما يعد من الأوائل الذين رسخوا علاقة علم النفس بالأدب لاعتماد كل منهما على الأسس المعرفية التي يحملها الآخر.

والمسلمات التي ينطلق منها فرويد لتفسير العمل الأدبي هي الخيال كونه من مصادر الفن في نظره ، كما أن الباعث الأول على الفن هو الغريزة وليس المحاكاة وهذا ما توصل إليه من خلال دراسته "للإخوة كارامازروف "لدوستويفسكي" وهملت "لشكسبير" ولوحة الرسام ليوناردو دافينشي"، واهتم أيضا بعملية الخلق الأدبي التي يمكن النظر إليها من ثلاثية الحلم والخيال واللعب[5].

وبرغم هذه المجهودات التي قدمها "فرويد" الا أنه لم يستطع الوصول إلى جوهر الإبداع الفني وقد اعترف بأن العمل الابداعي ذو أبعاد معرفية متعددة وأن وسائل و آليات التحليل النفسي عاجزة عن فك مغالق العملية الإبداعية وأن المبدعين هم أدرى بأسرار النفس الإنسانية وإليهم يرجع الفضل في اكتشاف اللاوعي.[6]

وسار تلاميذ "فرويد" في توسيع نظريته ومخالفة بعض أسسه ومنهم "ألفريد أدلر"(1870م-1937م)، صاحب مدرسة "علم النفس الفردي" الذي يرى أن الشعور بالنقص هو السبب الوحيد في نشأة العصاب وليست الغريزة الجنسية كما كان يعتقد أستاذه ، وأن الباعث الأساسي على الفن هو "غريزة حب الظهور أو حب السيطرة والتملك" [7] وانطلق من مسلمة مفادها أن الكائن لا يمكن أن يكون معزولا عن وسطه الاجتماعي وبالتالي الدوافع اللاشعورية مرتبطة بالعلاقات الاجتماعية.

أما "كارل غوستاف يونغ" (1875م-196م) أضاف نوعا آخر لمبدأ اللاشعور الذي أسسه فرويد يسميه اللاشعور الجمعي ويعده المنبع الأساسي للأعمال الأدبية والفنية، يختزن ماضي الأمم منذ عصورها البدائية ويتجلى في الأعمال الإبداعية عن طريق الرمز كأداة للتعبير عنه .وقد كان لنظريته أثر كبير في الأدب والأدباء[8].

و"شارل مورون" الذي قام بخلق قراءة جديدة للآثار الأدبية حيث انطلق من عوامل ثلاثة تكون الإبداع الأدبي هي: الوسط الاجتماعي وتاريخه، وشخصية الأديب وتاريخها، واللغة وتاريخها، والعامل الثاني هو موضوع النقد الفني في المقام الأول ، واستبعد أن يكون الأديب في كل حالاته إنسانا عصابيا .

ومما لاشك فيه أن لمدرسة التحليل النفسي أثر بالغ في دفع الحركة النقدية الحديثة وامدادها بأدوات إجرائية لتحليل شخصية الأدباء والفنانين استعان بها النقاد العرب المحدثين في الكشف عن شخصية الشعراء الغامضة كل حسب رؤيته ووعيه بأصول هذا المنهج.

2/ إشكالية تلقي المنهج النفسي في النقد العربي:

لم يخلوا تراثنا النقدي من ملامح هذا الاتجاه الذي يكشف عن خبايا النفس المبدعة والظروف التي تهيمن عليها قبل عملية الابداع ، ويعد "ابن قتيبة" من أوائل من تنبه إلى المضمون النفسي في مقدمته للشعر والشعراء، كما برزت هذه الملامح مع "أبو هلال العسكري" في "الصناعتين" و"عبد القاهر الجرجاني" في كتابه "أسرار البلاغة "....لكن نظرتهم كانت مجرد ملامح وأحكام نقدية سطحية ذات أبعاد سيكولوجية، من هنا أحس النقاد المحدثين بقصور المنهج القديم في استيعاب مضامين النص وتحليلها ونقدها وراح كل ناقد يدلي بدلوه في هذه القضية فأوردوا هده المآخذ وعدوها سبب التعثر والتخبط في دراسة الشعر الجاهلي ، وعلى رأسهم "عز الدين اسماعيل" الذي يرى ان رؤيتهم " لم تتجاوز مرحلة الإحساس المبهم إلى الشرح الموضوعي، فلم يحددوا معالم التجربة الفنية، كما لم يشرحوا لماذا تتأثر النفس بهذا العمل الأدبي أو ذاك شرحا علميا موضوعيا"[9] ، أما"يوسف اليوسف" فيرى "عيب الدراسات المعاصرة بأنها لم تحل الظاهر على باطن يسكنه بعمق أي هي لم تتعامل مع الأشكال الفنية الجاهلية من حيث هي رموز تضمر مالا يتبدى على سطحها لذا فهي لم تشكل قفزة في تاريخ النقد المعاصر"[10]

كما رأى تقصيرا في قراءة "ابن قتيبة" من حيث الإحاطة الدقيقة بجوانب الظاهرة الطللية -التي كان لها النصيب الوافر من الدراسات النفسية- ما جعله " يذهب إلى القول بأن تفسير ابن قتيبة يمتاز بالهشاشة لافتقاره الى الاحاطة الدقيقة بجوانب الظاهرة ما يجعله لا يصمد أمام النقد

وقد انطلق النقاد من اشكالية كبرى شغلت الكثير منهم وهي :هل نخضع الأدب الجاهلي لهذا المنهج ولباقي المناهج والمذاهب الغربية؟

وعلى ضوء هذه الإشكالية انقسم النقاد بين مؤيد ومعارض ، فهناك من يحذر من تطبيق هذه المناهج والمقاييس الغربية واقحامها على أدبنا العربي عامة والشعر الجاهلي بصفة خاصة ،كما فعل "النويهي" يقول "يجب أن نحذر أقوى الحذر من تطبيق مقاييس النقد الغربي وألا نندفع الى إقحامها على أدبنا العربي" ، ويعد الدكتور "عبد الملك مرتاض" من ألد أعداء

القراءة النفسية حيث وصفها بالمريضة المتسلطة باعتبار أنها تقوم "على افتراض مسبق يتجسد في مرضية الأديب، ومنه الأدب الناتج عنه مريض أيضا ، فيرى أن الغاية من التحليل النفسي للأدب ليست قراءة الأدب ذاته وإنما اتخاذ النص الأدبي ذريعة لتأويل تصرفات الأديب من خلال ما أبدعه [11] ، ويأتي "محمد مندور" أيضا في طليعة النقاد الداعين إلى فصل الأدب عن علم النفس لأنه يرى أن "الاهتمام بالأديب باسم علاقة الأدب بعلم النفس سينتهي بنا إلى قتل الأدب "[12].

في حين نجد من يؤيد هذه الفكرة ويرى أنها دراسة خصبة ظفر بها شعرنا القديم وأن تطبيقها يساعدنا على فك مغاليقه ويكشف عن كنوزه التي ظلت خافية على الدارسين القدامى يأتي في طليعة هؤلاء النقاد "العقاد" و "جورج طرابيشي" هذا الأخير الذي مارس النقد النفساني في كثير من مؤلفاته ، كما نجد أيضا "عز الدين اسماعيل" يدافع بقوة في كتابه "التفسير النفسي للأدب" على ضرورة تبني المنهج النفسي يقول "وعلى هذا لسنا نجد سندا قويا للمعارضين في محاولة تفهم الأدب القديم في ضوء التحليل النفسي، بل نجد –على العكس- ضرورة ملحة في ذلك كيما نستضئ بالماضي في إدراك قيمة الحقيقة الحاضرة من جهة، وكيما نحس فهم الماضي في ضوء هذه الحقيقة من جهة أخرى. فإذا كنا بسبيل فهم الأدب وتفسيره سواء في دلالته أو في العملية الإبداعية ذاتها، كان في علم النفس وسيلة، أي وسيلة لفهم الأدب على أساس صحيح "[13].

من خلال ما تقدم يتبين لنا أنه يجب التعامل مع المناهج الغربية بحذر وبتحفظ كبير لأن الخطورة تكمن في فرض منهج غربي على نصوص عربية الأصل لم تخلق أبدا لتناسب هاذا المنهج أو ذاك، وعليه فإن الإشكال يتحدد من عدم تصفيه هذا المنهج من شوائب انتمائه لتربته الأصلية أثناء مقاربتهم للنصوص الشعرية ظنا منهم أن المنهج هو عبارة عن أدوات إجرائية تتاح للناقد من أجل مقاربة النصوص وكأنه عبارة عن قالب يوضع فيه النص، كما يقول سعيد يقطين "منذ بداية احتكاكنا بالغرب ونحن لا نأخذ من النظريات والاتجاهات المختلفة سوى نتائجها وما فكرنا قط في استلهام الروح العلمية التي يشتغل بها أصحاب النظريات" ، وهذا ما ينطبق على القراءات النفسية لأنها تحاول فرض بعض التأويلات النفسانية على النصوص إن كانت تأباها بغية تأكيد فرضية ما مسبقة .

إذن علينا أن لا نحاول إخضاع المنهج النفسي إخضاعا أعمى بلا قيد أو شرط أثناء الممارسات النقدية لأنه أنتج في بيئة مخالفة تماما لبيئتنا العربية فإذا أردنا تطبيق هذا المنهج فينبغي أن نكون واعين لما نفعل، ولما نصطنع من مصطلحات.

3/القراءات النفسية للشعر الجاهلي في ضوء النقد الحديث:

سنقف عند بعض النماذج من النقاد الذين حالوا تطبيق المنهج النفسي في دراسة الشعر العربي القديم وهي نماذج سعت إلى الكشف عن جذور النظرية النفسية خاصة لدى "فرويد "ويونغ".

وأول هذه القراءات هي قراءة "عز الدين اسماعيل"، الذي يعد من أكثر النقاد الذين أضافوا الكثير إلى الدراسات الأدبية فقد ناصر المنهج النفسي من خلال اعتماده في كثير من ممارساته النقدية التطبيقية خاصة في كتابه "التفسير النفسي للأدب"، والأساس الذي انطلق منه "عز الدين اسماعيل "هو التأكيد على العمل الأدبي نفسه فاهتم بتفسير الشعر الجاهلي في ضوء حقائق علم النفس و لم يقف طويلا عند شخصية الأديب فهذا في نظره لا يفيد في فهم العمل الأدبي لأن الفن عنده "له كيانه المستقل وله دوره في الحياة"[14].

ولقد حاول "عز الدين اسماعيل" أن يتجاوز أخطاء من سبقوه الذين أهملوا العمل الأدبي نفسه وركزوا على شخصية الشاعر او المبدع وهو ما أكده بقوله" إني حاولت أن أتقدم خطوة في سبيل تأكيد المنهج العلمي في دراسة الأدب وتوضيح معلم هذا المنهج بطريقة تطبيقية عملية تنصب هذه المرة أول ما تنصب على الأعمال الأدبية ذاتها"[15]

ومن مظاهر التحليل النفسي التي وقف عندها هي "اللاشعور" والذي يراها هي أساس العمل الأدبي كونه نشاط باطني لاشعوري، وتوصل إلى ذلك أثناء تحليله لمجموعة من الصور الشعرية في الشعر القديم يقول" وهناك من الصور ما يخفى إدراك مضمونه الشعوري حين يعتمد تشكيل الصورة على المخزون اللاشعوري لدى الشاعر، وفي هذه الحالة يكون من الخطأ التعامل مع الصورة على أساس دلالتها الظاهرة المباشرة، ويتحتم بذل المجهود لاستكناهها"[16]

ويكفي شاهدا على ذلك تحليله لمقدمة "ذي الرمة" التي مطلعها:

ما بـال عينك منها المـــاء ينسكب كأنه من كليــة مفريـــة ينسـكب

لقد وجد عز الدين اسماعيل في شعر ذي الرمة مجال واسع للدراسة النفسية التحليلية لأنه "امتاز بصفة الربط بين الصور المتباعدة دون اعتبار للحدود الزمانية والمكانية وهي المتعة التي تدل دلالة واضحة على أن شعره كان يتم في حالة لا شعورية حالمة فصوره بعبارة موجزة هي أحلامه "[17]

وهذا ما تدل عليه الصورة الشعرية في بيت ذي الرمة (كأنه من كلية مفرية ينسكب)، إن هذا الرمز الذي أتى به الشاعر عبارة عن تجربة مر بها وهي مخزنة في منطقة لاشعوره وليست تهجما منه على الممدوح أو فساد ذوق كما اتهمه بعض النقاد.

كما لاحظ أيضا في موضع آخر أن شعره ملئ بظاهرة الصور المكتظة وهي نتيجة لعملية التكثيف اللاشعوري وأن حالة الاستغراق اللاشعوري هي التي تسلم إلى مثل هذه الصور [18]

لقد حاول "عز الدين اسماعيل" من خلال هذه الدراسة استكشاف المشاعر الدفينة التي تتحكم في سلوك الذات واستنتاجها من خلال مظاهر اللاشعور، كما اعتمد على مظهر آخر الذي جاء به "فرويد" أثناء تحليله لمعنى الحب حيث جمع تحت هذا المفهوم ما كان يعرف بغريزة حفظ الذات وغريزة حفظ النوع، وهو بهذا المعنى ضمان لحياة الإنسان على الأرض واستمرار لهذه الحياة وكان ذلك أثناء تحليله لمقدمة "الحارث بن حلزة":

آذنتـــنا ببينـــها أسمـــاء رب ثاو لا يمل منـه الثـــواء

فكان الفراق التي أعلنته أسماء بمثابة التهديد المباشر الذي يتجه إلى ذلك الحب ولهذا فإن عز الدين اسماعيل يرى أن الحب والحياة يتلازمان في نفسه ولعلهما قد تلازما منذ وقت مبكر [19] وانتهى إلى أن مقدمة القصيدة بصفة عامة هي تعبير عن الصراع الأبدي في نفس الإنسان وفي الحياة من حوله بين حب الحياة وغريزة الموت.

وبهذا تكون دراسة "عز الدين اسماعيل" من الدراسات التي اهتمت بالجزء الذاتي في القصيدة واعتبرتها ظرب من الشعور الفردي الذي يرتبط ببعض الظروف الخاصة لشاعر من الشعراء ،كما أن نظرته إلى الأعمال الأدبية كانت وليدة اللاشعور وهو ما نلاحظه في تحليله لمختلف القصائد القديمة التي ركز فيها على اللاشعور وكأنها كلمات انبثقت من لاشعوره وليس له أي سلطة كما جعل من نظريات التحليل النفسي قوالب ليصب فيها أحداث وحالات الشعراء لتلائم المحتوى التطبيقي للأطروحات.

ونجد بعض الدراسات الحديثة التي تجاوزت في موقفها من الشعر الجاهلي- وخاصة ظاهرة المقدمات- حد التعبير عن الجزء الذاتي الذي أفرغ فيه الشاعر طاقته الشعورية ليعبر عن همومه وموقفه من الحياة كما مر بنا مع "عز الدين اسماعيل" الى اعتبار صوره تعبيرا عن الإحساس الداخلي المكبوت في لاشعور الذات المبدعة التي ورثها من تلافيف الأنماط الأولى للعقل البشري، وخير من يمثل هذه الدراسة "يوسف اليوسف" .

تعد قراءة "يوسف اليوسف" أنضج المقاربات النفسية من حيث اعتمادها على أسس التحليل النفسي في قراءة الشعر الجاهلي ضمن الإطار المعرفي لهذه النظرية التي أسسها يونغ و فرويد وغيرهم..، حاول المؤلف من خلال دراسته أن يعرف أحوال الشعراء الجاهليين أمثال "الشنفرى" و"طرفة" و"عنترة" ....فانسحاب "الشنفرى" مثلا يرى أنه شكل " من أشكال التنازل عن الذات واسراف في عشقها إذ كلما زادت الأنا عشقا لذاتها أصبحت أكثر ميلا إلى العزلة عن الآخر كما يقرر التحليل النفسي المعاصر "[20]

كما ربط "يوسف اليوسف" حالة عنترة بالوضع الاجتماعي الذي كان يعانيه والظروف القاسية التي عاشها ما جعله شخص نرجسي وهو" ما طور الشعور بالفردية لديه ورفض الأب له ولد كراهية له مما يشي بعقدة أوديب والقمع الذي يمارسه المجتمع على الليبيدو جعله يتموضع على الذات ويؤدي دورا مهما دون تصفية عقدة أوديب"[21]

وحاول "يوسف اليوسف" كغيره من النقاد ان يقف عند ظاهرة المقدمة الطللية باعتبارها من المظاهر الفنية التي استقطبت الكثير من القراءات النفسية، ذلك لما تحمله من دلالات ذات أبعاد نفسية تدخل ضمن الإطار النفسي العام لمعرفة العلاقة بينها وبين الإنسان الجاهلي من خلال الأبعاد المكانية (بقايا الديار) والأبعاد الزمانية (الماضي بكل ثقله)، وقد اعتمد يوسف اليوسف على "اللاشعور الجمعي" الذي تحدث عنه "يونغ" في سياق مقاربته للمقدمة الطللية حيث يرى أنها منفذ للوصول الى احباطات ومكبوتات المجتمع الجاهلي وتطلعاته وأشكال انسلابه معا فهو يبدع عبر الطللية ماضيه وواقعه شعرا ويتحفز لمستقبله "[22].

وكان شاهده في ذلك مقدمة النابغة الذبياني:

أهاجك من سعداك مغنى المعاهد بروضة نغمي فذات الأســـاود

تعـــاورها الأرواح ينســـفن تربها وكل ملث ذي أهاضيب راعد

عهدت بها سعدي وسعدى غريرة عروب تهـــادى جوارخـــرائد

توصل "يوسف اليوسف" أثناء تحليله لهذه الأبيات وباعتماده على آليات التحليل النفسي إلى أن المقدمة الطللية تجمع بين عناصر ثلاثة هي:

- القمع الجنسي.
- الاندثار الحضاري.
- قحل الطبيعة.

وبالتالي فالمقدمة الطللية هي بوح لاشعوري لعاطفة الإشباع الجنسي الفردي، التي ترى في الطلل قمعا لارتواء الليبيدو ، ومن هنا يأتي الاحتجاج على الكبت الذي أصاب غريزة الحياة من خلال تصرم العلاقة مع محبوبته...،كما أن الوقوف على الطلل هو تعبير على الحياة والموت اللذان يتنازعان في ذات الشاعر وهو ما يمثله الجدب والكبت الجنسي ،

وكل هذه العناصر هي مقاومة لأشكال القهر كافة[23]

إذن فقد تجاوز يوسف اليوسف رؤية عز الدين اسماعيل من حيث أنها تعبير عن الجزء الذاتي في القصيدة إلى كونها رؤية مخزونة في اللاشعور الجماعي ، فالطللية هي صراع بين الشاعر ومحيطه الاجتماعي وقد جاء هذا في سياق نقده لآراء "فالتر

براون" الذي ربط قراءته للمقدمة الطللية بأنها تعبير عن الأزمة الوجودية التي كان يعيشها الشاعر الجاهلي في ظل انعدام نظرية تفسر وجودهم فيرى أنه يتعامل مع الشاعر الجاهلي كما لو كان مسلوخا عن أرضيته الاجتماعية.

استطاعت قراءة "يوسف اليوسف" أن تربط بين التفسير الوجودي وبين علاقات الشاعر الاجتماعية في فضاء الصحراء وارتباطه بالمكان المقفر الذي يعبر عن ضياع الشاعر حيث تربطه بقومه رابطة التفكير الجمعي، وهذا ما عبر عنه مصطفى ناصف "الشعر خلال هذه الفترة ليس ظربا من الشعور الفردي الذي يعول في شرحه على بعض الظروف الخاصة بشاعر من الشعراء ، إنما تصدر عن عقل جماعي لا عن عقل فردي أو حالة ذاتية ، والحق أن الشعر الجاهلي يوشك أن يكون على هذا النحو ، بمعنى أن مراميه فوق ذوات الشعراء ولذلك يجب أن لا يغيب عن الذهن أن الأطلال والشعر الجاهلي كله يثير التأمل في معنى الانتماء وسلطان اللاشعور الجمعي" [24]،استمد "يوسف اليوسف" رؤيته من التفسير "لفرويدي الذي يجعل من اللبيدو مقولته الكبرى وآليته الاولى في تحليل الأعمال الإبداعية وهذا ما يمز كل أعماله تقريبا.

إضافة إلى هذه القراءات وردت قراءة "يوسف خليف" أشار فيها إشارة واضحة إلى تظافر ما هو اجتماعي مع ما هو نفسي في صنع اللحظة الطللية ، وردها الى مشكلة الفراغ في المجتمع الجاهلي الرعوي ، وأنها كانت الفرصة الوحيد التي أتيحت للشعراء لكي يعبروا عن أنفسهم[25]

وبهذا تصبح صورة الطلل عند "يوسف خليف" قريبة من تصور "يوسف اليوسف" بأنها مرتبطة بالعلاقات الاجتماعية إلى جانب التعبير عن صراع الشاعر وضياعه وهي فكرة تقترب نوعا ما مع ما جاء به يونغ في تعبيره عن اللاشعور الجمعي.

كما وردت أيضا قراءة "حسين عطوان" في كتابه "مقدمة القصيدة الجاهلية " بعيدة عن مقولات التحليل النفسي حيث وقف في بداية الامر عند قراءة كل من "يوسف خليف" و"عزالدين اسماعيل" توصل إلى أن قراءة عز الدين اسماعيل لم تكن إلا نسخا لأفكار المستشرق الألماني "فالتر براون" ثم زادها وضوحا ببراهين جديدة من أقوال العلماء والفلاسفة المحدثين ولن يلبث أن نسبها إلى نفسه" [26]. على عكس قراءة يوسف خليف الذي يرى أن قراءته كانت قراءة جد خصبة رصد فيها المقدمة الطللية منذ نشأتها ووصلها وصلا محكما بحياة العرب .

وانتهى إلى أن من يمعن النظر في المقدمات جميعا يراها تدور على معاني الشوق والحنين "وبذلك فهو يقارب الجانب النوستالجي في بعده النفسي والذي يكون عاملا مِؤسسا لكثير من الصور والتداعيات في العملية الإبداعية ولكن على الرغم من تلميحه إلى مقولة النوستالجيا لكنه لم يثمر هذا الجانب في مقاربته وإلا لغاص في أعماق المكنونات اللاشعورية التي أفرزت هذه الظاهرة "[27]

الخاتمة:

من خلال ما تقدم يتبين لنا:

- أن تراثنا النقدي لم يخلو من ملامح هذا الاتجاه الذي يكشف عن خبايا النفس المبدعة والظروف التي تهيمن عليها قبل عملية الإبداع ، حيت جعلت الكثير من القراءات الحديثة تتنبه إلى الجوانب النفسية في الشعر الجاهلي وخاصة في المقدمة الطللية.

- كما توصلنا إلى أن إشكالية المنهج في النقد العربي الحديث تكمن في غياب التأصيل المنهجي لمختلف المقاربات والمناهج التي تبناها النقاد العرب ومنها المنهج النفسي الذي لقي تهافتا كبيرا في الساحة النقدية العربية، وأيضا أزمة ممارسة هذا المنهج الغربي لنصوص تراثية عربية، باعتباره مجرد أدوات اجرائية تتطبق على النص مما يستدعي في بعض الأحيان استنطاق

النص بما ليس فيه لتبرير أدوات وآلياته .ولهذا وجب علينا أن لا نخضع المنهج النفسي إخضاعا أعمى بلا قيد أو شرط أثناء الممارسات النقدية لأنه أنتج في بيئة مخالفة تماما لبيئتنا العربية فإذا أردنا تطبيق هذا المنهج فينبغي أن نكون واعين لما نفعل، ولما نصطنع من مصطلحات

- فيما يخص القراءات النفسية الشعر الجاهلي فقد اهتم النقاد كل حسب منظوره بإسقاط النظرية النفسية التي يقتنع بها وجعلوها قوالب ليصبوا فيها حالات وأحداث الشعراء حيث ركزوا اهتمامهم على نظرة "فرويد" للاشعور وكأن الأديب ليس له أي سلطة على نصه، اما بعضهم فقد استلهم نظرية اللاشعور الجمعي التي أتى بها "يونغ" ،كما جعلوا من الشاعر فردا عصابيا، وحاولوا أن يبحثوا للشاعر على مختلف العقد التي بلورتها نظرية التحليل النفسي فأهملوا بذلك النص الشعري الجاهلي وما يحمله من جمالية ورؤية وجودية التي خلدته وارتقت به إلى مصاف الإبداعات العالمية الكبرى.

هوامش:

[1] يوسف وغليسي ،مناهج النقد الأدبي ،جسور للتوزيع ،الجزائر، ط1، 2007، ص 22.

[2] عفيف عبد الرحمن، الأدب الجاهلي في آثار الدارسين قديما وحديثا، دار الفكر للنشر والتوزيع، عمان، د ط، ص 264 .

[3] يوسف وغليسي ، مناهج النقد الأدبي، ص 22.

[4] ينظر: سيغموند فرويد، المختصر في التحليل النفسي، تر: جورش طرابيشي، دار الطلعة، بيروت، ط1 ، 1981، ص21.

[5] ينظر: حسين الواد، قراءات في مناهج الدراسات الأدبية، دار سراس للنشر والتوزيع، تونس، د ط، ص09.

[6] ينظر: سيغموند فرويد، التحليل النفسي والفن، تر: سمير كرم، دار الطليعة، بيروت، ط4، 2008، ص94.

[7] المرجع نفسه، ص 113.

[8] ينظر: محمد علي عبد المعطي، الإبداع الفني وتذوق الفنون الجميلة، دار المعرفة الجامعية، مصر، د ط، ص 154-155.

[9] عز الدين اسماعيل، التفسير النفسي للأدب ، دار العودة للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 1963، ص6.

[10] يوسف اليوسف، بحوث في المعلقات، وزارة الثقافة، دمشق، د ط، ص35

[11] ينظر: يوسف وغليسي، مناهج النقد الأدبي، ص 28-29.

[12] محمد مندور، في الميزان الجديد، دار نهضة، مصر، د ط، ص 170.

[13] عز الدين اسماعيل، التفسير النفسي للأدب، ص14.

[14] عز الدين اسماعيل، التفسير النفسي للأدب، ص18.

[15] المرجع نفسه، ص08.

[16] المرجع نفسه، ص 84.

[17] المرجع نفسه، ص86.

[18] ينظر :المرجع نفسه، ص86

[19] حسين عطوان، مقدمة القصيدة العربية في الشعر الجاهلي، دار المعارف للنشر والتوزيع، مصر، د ط، ص 220 .

[20] يوسف اليوسف، مقالات في الشعر الجاهلي ، وزارة الثقافة والارشاد الفردي، دمشق، 1975، ص31.

[21] المرجع نفسه، ص33.

[22] ينظر: المرجع نفسه، ص77-78.

[23] ينظر، يوسف اليوسف، مقالات في الشعر الجاهلي، ص 83-85

[24] عبد القادر فيدوح، الاتجاه النفسي في نقد الشعر العربي، دار الصفاء للطباعة والنشر، عمان، د ط، ص 260.

[25] ينظر: حسين عطوان ، مقدمة القصيدة العربية في الشعر الجاهلي، ص239.

[26] ينظر: المرجع نفسه، ص219.

[27] محمد بلوحي، آليات الخطاب النقدي في مقاربة الشعر الجاهلي ، اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ،2004.ص76.